مكتبة

الشيوعية والثقافة:
طلاق مُرّ بعد زواج حميم (٢-٢)

TONY JUDT
POSTWAR: A HISTORY OF EUROPE SINCE 1945
THE PENGUIN PRESS (2006)

دعم الغرب

وقد دين الاثنان (أندريه سينيافسكي ويولي دانيال) فعلاً وحُكم عليهما بالسجن في معسكرات العمل الجماعيّ الشهيرة. وبدوره، اعتبر الكرملين أن المسألة برمّتها سُوّيت وانتهت مثل سابقات لها كثيرات. لكنّ ما لم يدر في خلد الحكّام السوفيات أن محاكمة سينيافسكي ودانيال قد صُوّرت سرّاً وسُرّبت إلى الغرب، حيث انطلقت حملة دعم عريضة لهما في أوساط المثقّفين والجامعيّين والإعلاميّين وأهل الرأي العامّ الأميركيّ والأوروبيّ معاً.

والراهن أنّ ما كان ممكناً تمريره في الأربعينات والخمسينات لم يعد ممكناً بالسهولة عينها في الستينات: ذاك أن إصلاحات خروتشوف، على جزئيّتها وسطحيّتها، سمحت بحدّ أدنى من التواصل الذي شكّل ثغرة في جدار الحرب الباردة والجهل بالآخر. كذلك، وبسبب تلك الإصلاحات الجزئيّة، صار في وسع المثقّفين والطلبة السوفيات أن يتجرؤوا على طلب مقادير من الحريّة كانوا، من قبل، لا يجرؤون على تخيّلها.

في هذه الحدود، وحسب تجربة سينيافسكي ودانيال، بدا من المدهش أن السلطة الجديدة، في قمعها المثقّفين، إنّما تفوّقت على سلطة ستالين. فالأخير، على رغم قسوته، بل وحشيّته التي غدت مثالاً يُضرَب، كان لا يضطهد المثقّفين بسبب ما يكتبون بل بسبب ما يفعلونه، أو أنّ هذا، على الأقلّ، ما درجت الدعاية الستالينيّة على

توكيده في معرض الردّ على النقّاد الغربيّين. أمّا الآن فأمست السلطة لا تتورّع عن القول إنّ «مضمون أعمال» الكتّاب هو، بذاته، «شهادة على ارتكاب» الجرائم!

ما لم يكن متوقّعاً كليّاً في دوائر الحزب الشيوعيّ وأجهزته الرسميّة، أن تنطلق حملة اعتراض غير مسبوقة في تاريخ الاتّحاد السوفياتيّ نفسه، منذ ١٩١٧، على اضطهاد سينيافسكي ودانيال. ولئن ظلّت الحملة المذكورة متواضعة ومحكومة، بطبيعة الحال، بسقف منخفض، فقد رجّح الدارسون والمؤرّخون في ما بعد أن تكون تلك اللحظة الاعتراضيّة البداية التأسيسيّة لحركة الانشقاق اللاحقة التي عرفتها موسكو ولينينغراد: ففي ١٩٦٦ ظهرت، للمرّة الأولى، «سميزدات» (المطبوعات المعدّة ذاتيّاً) ردّاً على تلك المحاكمة، وهي التي غدت السلاح التعبيريّ والاتّصاليّ الأمضى للمنشقّين اللاحقين.

كما أن الكثيرين من وجوه المنشقّين البارزين، في السبعينات والثمانينات، ظهروا ظهورهم الأوّل آنذاك كمحتجّين ومعترضين على الوضع القائم. وفي ١٩٦٧ اعتُقل فلاديمير بوكوفسكي، وهو يومها طالب في الخامسة والعشرين، بسبب تنظيمه تظاهرة صغيرة في ساحة بوشكين بموسكو، دفاعاً عن الحقوق المدنيّة وعن حريّة التعبير. وكان هو نفسه قد اعتقل، قبل أربع سنوات، بتهمة حيازة «أدب مناهض للسوفيات» فأُودع، على جاري العادة السوفياتيّة، مستشفى للأمراض العقليّة. أمّا الآن فحُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات أخرى في معسكر عمل جماعيّ، وأيضاً بسبب «نشاطات مناهضة للسوفيات».

ويمكن القول، من دون خطر الوقوع في المبالغة، إن محاكمة سينيافسكي ودانيال وردود الفعل عليها ظهّرت ما بدا واحدة من أبرز مرايا الاتّحاد السوفياتيّ والشيوعيّة الحاكمة آنذاك. أي أنّ تلك المحاكمة كانت الدليل على ما تغيّر وما لم يتغيّر في الحكم والثقافة والاجتماع وطبعاً في تاريخ القمع. وفي المحصّلة النهائيّة انكشف من ذاك النظام وجهه الراكد وروحه المتجهّمة من غير مساحيق، وتأكّد أن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعيّ في ١٩٥٦، في إدانته الستالينيّة، قد ذوى تماماً وانتهت مفاعيله، وأنّ ليونيد بريجنيف ومجموعته يعملون على ردّ بلدهم إلى ما قبل ذاك المؤتمر. وهي، على العموم، تجربة سياسيّة بقدر ما هي ثقافيّة، أو أنّها تدمج بين المستويين وتعلن عن حجم تقاطعهما الكبير.

لقد كان التغيير في أوروبا الشرقيّة والوسطى أصعب من مثيله في الاتّحاد السوفياتيّ، على ما يكرّر تونى جوت. ذاك أن سكّان أوروبا كانوا عُزّلاً على نحو مزدوج: حيال أنظمتهم

كما حيال النظام الروسيّ. وفي هنغاريا، في تشرين الثاني ١٩٥٦، تلقّى المنتفضون، وتالياً السكّان، درساً قاسياً تمثّل في سحق الدبّابات السوفياتيّة لانتفاضتهم، بينما كان لا يزال، في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا، ضحايا المحاكمات المسرحيّة للستالينيّة يتعفّنون في سجونهم وفي معسكرات تجميعهم.

مع هذا اختلفت أوروبا الشرقيّة لجهة إقدامها على سلوك طريق التغيير الصعب والوعر، مما تجنّبه الروس. وكان أحد أسباب ذلك أن إلحاقها بالسوفيات كان لا يزال حديث العهد نسبيّاً. ففي الستينات صارت الشيوعيّة النظام الوحيد الذي وعاه وعرفه معظم سكان الاتحاد السوفياتيّ الذين ولدوا بعد ١٩١٧، وقد جاءت «الحرب الوطنيّة الكبرى» ضدّ ألمانيا النازيّة لتمنحه الشرعيّة الوطنيّة والتقليديّة. إلاّ أنّ السيطرة السوفياتيّة في شرق أوروبا كانت لا تزال طريّة وحديثة العهد. وبما أنّ الحكّام المنصّبين هناك كانوا ألاعيب في يد موسكو، يفتقرون إلى كلّ شرعيّة وطنيّة ومحليّة، تضاعفت حساسيّتهم حيال الإصلاحات وزاد خوفهم منها، كما فاقم عجزهم عن تفهّم السكّان المحليّين ومطالبهم.

ماركسيّة بلا ستالينيّة؟

وهذا مع العلم أن نقّاد الأنظمة في تلك البلدان، ما بين ١٩٥٦ و١٩٦٨، لم يكونوا مناهضين للشيوعيّة. ففي جوابه على توكيد جان بول سارتر في ١٩٥٦ بأن ثورة هنغاريا تميّزت بـ«روحيّة يمينيّة»، قال الأكاديميّ الهنغاريّ اللاجئ فرانسوا فيجتو بأن الستالينيّين هم الذين يقفون على اليمين: إنّهم «الفيرسايّون» (نسبة إلى قصر فرساي الفرنسيّ) و«نحن نبقى رجال اليسار، أوفياء لمبادئنا ومُثلنا وتقاليدنا». وكان إصرار فيجتو على مصداقيّة يساريّته المناهضة للستالينيّة تلتقط روحيّة المعارضة الثقافيّة في أوروبا الشرقيّة، وهو ما استمرّت عليه الحال وصولاً إلى ١٩٦٨.

فالموضوع لم يكن إدانة الشيوعيّة، ناهيك عن إطاحتها، بل التفكير العميق في السبب الذي أوجد الأخطاء المريعة في تجربتها، ومن ثمّ السعي إلى اقتراح بدائل من داخل الشيوعيّة والماركسيّة ذاتهما. وهذا ما عدّته السلطات الحاكمة «تحريفيّة»، مستعيدة الوصف الذي كان لينين قد أطلقه على كاوتسكي إذ اتّهمه بالتخلّي عن الماركسيّة الثوريّة القويمة لصالح ماركسيّة إصلاحيّة و«تحريفيّة». وكان أوّل من جدّد استخدام هذه الكلمة، في هذا السياق، القياديّ الشيوعيّ البولنديّ فلاديسلو

غومولكا، وذلك في أيّار (مايو) ١٩٥٧ إبّان اجتماع للّجنة المركزيّة لحزب العمّال البولنديّ الموحّد، أي الشيوعيّ الحاكم.

وحتّى ١٩٥٦ ظلّ كثيرون من هؤلاء «التحريفيّين»، وأهمّهم في بولندا يومها الفيلسوف الماركسيّ الشابّ ليجيك كولاكوفسكي، ماركسيّين أرثوذكساً أمناء، بالتالي، لحرفيّة النصّ، كما استمرّوا يراهنون على التمييز بين صدقيّة الماركسيّة – اللينينيّة وبين جرائم جوزيف ستالين واستفحاله الأمنيّ والبيروقراطيّ. فعند كثيرين من ماركسيّي أوروبا الشرقيّة، كانت الماركسيّة المعمول بها النسخة الرديئة والممسوخة عن المعتقديّة الماركسيّة كما ينبغي لها أن تكون، مثلما ظلّ الاتّحاد السوفياتيّ الدليل الدائم إلى صدقيّة مشروع التحوّل الاشتراكيّ، سلباً وإيجاباً. لكنْ، وعلى عكس «اليسار الجديد» في بلدان أوروبا الغربيّة، فإنّ المراجعين في الشطر الشرقيّ استمرّوا يعملون مع الشيوعيّين، وغالباً داخل أحزابهم. وقد نجم هذا جزئيّاً عن الحاجة والاضطرار المعيشيّين، لكنّه نجم أيضاً عن اقتناع بأنّ النظام، على أخطائه، هو نظامهم، وأن مؤسّساته، على تشوّهاتها، تبقى مؤسّساتهم.

ومع الزمن كان لهذا العامل أن ساهم في عزل «التحريفيّين» لا في نظر السلطة، بل أيضاً في نظر جيل جديد صاعد ومتأثّر بزملائه في الغرب وبما يُطرح هناك من قطيعة مبرمة مع النظام الشيوعيّ ومؤسّساته ومعتقداته.

غير أنّه يبقى أنّه ما بين ١٩٥٦، أي قمع الثورة الهنغاريّة، و١٩٦٨، أي قمع الانتفاضة التشيكوسلوفاكيّة أو «ربيع براغ»، كانت اللحظة التحريفيّة في أوروبا الشرقيّة هي التي تزوّد الكتّاب وصانعي الأفلام السينمائيّة والاقتصاديّين والصحافيّين وغيرهم من فئة الانتلجنسيا تلك النافذة الضيّقة للتفاؤل في ما خصّ المستقبل الاشتراكيّ البديل. وهذا ما تغيّر كليّاً في ١٩٦٨، ثمّ مع سقوط تلك الأنظمة أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات.

في هذا المسار الذي يرصده توني جوت كان لبولندا خصوصيّتها. ففيها وُجد الحيّز النقديّ الأهمّ والمحميّ الذي وفّرته الكنيسة، خصوصاً الجامعة الكاثوليكيّة في لوبلين ومجلّتا «زناك» و«تيغودنيك بوشيشني». وكان من خصوصيّات بولندا في سنوات حكم غومولكا أنّ الفلاسفة الماركسيّين واللاهوتيّين الكاثوليك طوّروا قواسم مشتركة في دفاعهم عن حريّة التعبير والحريّات المدنيّة، وكان هذا نواة مبكرة لتحالف عرفته السبعينات.

أمّا في باقي أوروبا الشرقيّة، فظلّ الحزب المجال الوحيد لممارسة النقد، وكان الموضوع المأمون من النقد «النافع» يطال الإدارة

الاقتصاديّة حصراً. فالماركسيّة التقليديّة شديدة التداخل مع الاقتصاد السياسيّ بحيث باتت السياسة الاقتصاديّة، بعد ستالين، المجال المتاح للاعتراض. ثم إنّ الكثيرين من مثقّفي أوروبا الشرقيّة كانوا لا يزالون ينظرون إلى الماركسيّة بجدّيّة ويعاملون الاقتصاد الشيوعيّ كمنطلق نظريّ للإصلاح. بيد أنّ التفسير الأبسط هو أن اقتصاديّات الدول الشيوعيّة، مطالع الستينات، كانت تُظهر بواكير الإخفاق الذي لا إصلاح له. فممّا لم يعد سرّاً انكشاف عجز تلك الأنظمة عن تأمين الطعام الكافي لسكّانها تبعاً لالتزامها بالإنتاج الضخم للسلع الصناعيّة الأساسيّة. أمّا السلع، وخصوصاً الاستهلاكيّة التي يتزايد الطلب عليها، فإمّا أنّها كانت تُنتج بنوعيّة رديئة أو أنّها كانت لا تُنتج أصلاً. وبدوره أُدير نظام توزيع تلك السلع الرديئة وبيعها بطريقة سيّئة جدّاً بحيث تعاظمت أسباب النقص والندرة فضلاً عن الفساد والهدر.

إنّهم اليهود...

وكان يُغطى على نواقص الشيوعيّة، في العقد الأوّل لما بعد الحرب الثانية، بالحاجة إلى إعادة إعمار ما هدّمته الحرب وضرورات ذلك وما يستلزم من تضحيات. لكنْ في أوائل الستينات، ومع تباهي خروتشوف بأن الشيوعيّة ستتفوّق قريباً على الرأسماليّة، لم يعد ممكناً تلفيق الفجوة بين النبرة الحزبيّة والواقع.

وفي صيف ١٩٦٤ أصدر طالبان في جامعة وارسو، هما جاسيك كورون وكاريل مودزيليفسكي، نقداً أكاديميّاً للنظام البولنديّ. ما كتباه كان ماركسيّاً شكلاً ومحتوى، لكنّ هذا لم يحل دون طردهما من الحزب واتّحاد الشبيبة الاشتراكيّة ومن إدانتهما في الدوائر الرسميّة لنشرهما «دعاية مناهضة للحزب». وجاء ردّهما في آذار ١٩٦٥ رسالةً مفتوحة إلى الحزب سلّماها إلى فرعه في جامعة وارسو، وأشارا فيها إلى وجود نظام بيروقراطيّ وأوتوقراطيّ لا يستمع إلا لمصالح النخبة الحاكمة، على حساب الشعب في ازدهاره وحريّاته، وقد استنتجا أنّ الأمل الوحيد لبولندا ثورة حقيقيّة ترتكز على مجالس عمّاليّة وعلى حريّة الصحافة وإلغاء البوليس السياسيّ. بعد يوم على تقديمهما رسالتهما اعتُقلا واتُّهما بتبرير إطاحة الدولة، وبعد أشهر حُكما بالسجن ثلاث سنوات وثلاث سنوات ونصف السنة على التوالي.

لقد بدت السلطة شديدة الحساسيّة لاستخدام لغتها ضدّها وللدعوة إلى ثورة عمّالية تحلّ محلّ الديكتاتوريّة البيروقراطيّة، ما ذكّر البعض بالنقد التروتسكيّ القديم

للسلطة السوفياتيّة. وربّما كان النظام مهتمّاً، قبل كلّ شيء، بقطع الطريق على اندماج التشخيص الفكريّ بالجهد العمّاليّ النضاليّ، وهو ما دعت إليه الرسالة.

وبدورها أثارت قضيّة كورون ومودزيليفسكي ردوداً حادّة في الجامعة. فالمحاكمة السريّة للطالبين كانت صادمة وظهرت مطالبات تتعدّى إخلاء سبيلهما إلى نشر رسالتهما وبحثهما الذي سبقها. وتبنّى الموضوع هذا أساتذة كبار كليسيك كولاكوفسكي أستاذ الفلسفة في جامعة وارسو: ففي أواخر ١٩٦٥، خاطب الطلاّب في معهد التاريخ إبّان الذكرى العاشرة لقيام الحكم الحزبيّ، فقال إن تلك المناسبة فرصة ضاعت، وان بولندا، بعد عشر سنوات على انتصار الشيوعيّة، لا تزال أرض امتيازات وقلّة كفاءة ورقابة، فيما اضطهاد كورون ورفيقه علامة على انحطاط الحزب والبلد. هكذا طُرد كولاكوفسكي من الحزب بوصفه «ليبراليّاً بورجوازيّاً»، مع أنّ زملاءه في الجامعة أكّدوا على صدق ماركسيّته. بعد ذاك كتب ٢٢ كاتباً ومثقّفاً شيوعيّاً بارزاً إلى اللجنة المركزيّة يدافعون عن «الرفيق كولاكوفسكي». وهؤلاء أيضاً طُردوا.

لكنْ في ربيع ١٩٦٧ نشأت، في مقابل القيادة التي هزّها الهجوم عليها «من يسارها»، معارضة ثقافيّة جدّيّة فيما صارت جامعة وارسو حصنها دفاعاً عن حرية التعبير وعن الأساتذة المضطهَدين.

وفي الجامعة المذكورة خيضت كبرى معارك حريّة التعبير مطالع ١٩٦٨: فقبل أشهر كان المسرح الجامعيّ قد باشر عرض مسرحيّة لآدم ميكيوفيتش، شاعر بولندا الوطنيّ، كُتبت في ١٨٣٢ لكنّها ظلّت بالغة المعاصَرة في تصويرها ثوّار القرن التاسع عشر وهم يقاومون الظلم. وكان للمسرحيّة صدى واسع كما اجتذبت حضوراً كبيراً إلى أن أعلنت السلطات عن إلغاء عرضها. وعلى الأثر زحف الطلبة في اتّجاه تمثال ميكيوفيتش، في وارسو، شاجبين الرقابة مطالبين بـ«مسرح حرّ». وقد وصف طالبان من هؤلاء هما هنريك سلاجفير وآدم ميشنيك الوضع للصحافة الأجنبيّة فطُردا من الجامعة. وتدفّقت موجة من العرائض الطلاّبيّة مرسلة للبرلمان وخطابات حادّة أخرى لكولاكوفسكي وآخرين. ومن ناحيته هاجم البوليس تجمّعات الطلبة فانطلقت تظاهرات طلاّبيّة وأضربت الجامعة نفسها، وشرعت أوساط حزبيّة تحذّر من أنّ الحزب يفقد سيطرته كما تحذّر موسكو وتنبّهها إلى وجود مخاطر «تحريفيّة» على الطريقة التشيكوسلوفاكيّة. وبعنف ردّ نظام غومولكا فسحق التحرّكات، ما أدّى إلى استقالة عضو في المكتب السياسيّ

ووزيريـن بارزيـن. وفـي المقابـل فُصـل مـن الجامعـة ٣٤ طالبـاً وسـتّة أسـاتذة بمـن فيهم كولاكوفسـكي. بعـد ذاك وعلـى أثر سـحق انتفاضة الربيع في تشيكوسـلوفاكيا المجاورة، اعتقلـت السـلطات منظّمـي الاعتراضـات والعرائـض ضـدّ الغـزو السـوفياتيّ وجـاؤوا بهـم إلـى المحكمة. وفـي مسلسـل طويل من المحاكمات خلال ١٩٦٨ و١٩٦٩، حُكم على طلاب ومثقّفين بالسجن مدداً تتراوح بين ستّة أشهر وثلاث سنوات لـ«المشاركة في منظّمات سـرّيّة» وتوزيع «منشـورات مناهضة للدولة» و«جرائم» أخرى.

وخلال ١٩٦٧–٦٩ اعتُقل وطُرد عدد من الطلبة والأساتذة، من ذوي الأصول اليهوديّة، يفوق كثيراً نسـبة اليهود فـي المجتمع، وهذا لم يكن بلا دلالة. فاللاساميّة منذ وفاة ستالين حتّـى ١٩٦٧ ظلّـت خـارج النبرة الشـيوعيّة الرسـميّة. إلاّ أن حـرب ١٩٦٧ العربيّـة–الإسـرائيليّة وفّرت لها مناسبة الانتقال من نقد إسرائيل المبرّر إلى نقد اليهود.

وهكذا ففـي خطاب شـهير ألقي في ١٩ حزيـران (يونيـو)، مدينـاً مَن دعمـوا الدولة العبريّـة فـي الحرب، سـمّى غومولـكا اليهود بالطابور الخامس. هكذا أعيد الاعتبار لأسـوأ عادات الاسـتبداد الأوروبيّ فـي جعله اليهود كبش محرقة الفشـل السياسـيّ والاقتصاديّ.

وفـي الأحـوال كافّـة، انطلقـت موجـة تمييز ضدّهـم في البلد، ولكـنْ خصوصاً في الحزب والمؤسّسـات التعليميّة، ونشـر موظّفو الحزب خرافـة مؤدّاهـا أنّ الإخفاقـات الاقتصاديّـة والمشـاكل الأخـرى يُسـأل عنها الشـيوعيّون اليهـود. وسـريعاً مـا انتشـرت المقارنات بين شـيوعيّين جيّدين تؤرّقهـم المصالـح الوطنيّة لبولنـدا وشـيوعيّين يهـود يكمـن ولاؤهـم للخـارج. واسـتمرّت فـي ١٩٦٨ موجة طرد اليهود من وظائفهم و«إغرائهم» بمغادرة البلد. فمـن أصـل ٣٠ ألف يهـوديّ هاجـر ٢٠ ألفاً خلال ١٩٦٨–٦٩. ولئن اسـتفادت إسـرائيل مـن ذلك، فقـد اسـتفاد أيضـاً الشـيوعيّون المسـيحيّون الذيـن حلّـوا محـلّ اليهـود في المناصـب الحزبيّـة والحكوميّة. أمّا الخاسـرون، فضـلاً عن يهـود بولنـدا، فكانوا المؤسّسـات التعليميّـة التي فقدت بعض خيرة رموزها بمن فيهم كولاكوفسـكي (لم يكـن يهوديّاً لكنْ متزوج من يهوديّة)، كما لُطّخت صورة البلد في العالم.

تشيكوسلوفاكيا بعد بولندا

وفي الخلاصـة، تمكّن حكّام بولندا، بسـهولة نسـبيّة، مـن عـزل الاحتجاجـات الطلابيّـة وضربهـا، عبر نجاحهـم في فصـل الطلبة عن باقي الأمّة. وربّما كان للطلبة بعض المسـؤوليّة

عن ذلك: فهم ركّزوا على حريّة التعبير والحقوق السياسيّة ولم يُبدوا أيّ اكتراث بالهموم المعيشيّة للشعب العامل، الأمر الذي استخدمه ستالينيّو السلطة على أوسع نطاق تشهيراً بالحركة. لكنّ درس تلك التجربة، الذي استفيد منه لاحقاً، كان أن التغيير يستدعي ردم الهوّة بين هموم العمّال والمثقّفين والطلبة وإقامة تحالف سياسيّ بينهم. ولم يكن بلا دلالة أنّ جاسيك كورون وآدم ميشنيك كانا في طليعة من وعوا هذا الدرس.

أمّا تشيكوسلوفاكيا، حسب توني جوت، فهي حيث أفضى الزواج إلى أمرّ الطلاقات. فهي في أوائل الستينات بدت كائناً هجيناً يعيش انتقالا متعثّراً من الستالينيّة إلى الشيوعيّة المُصلَحة. فأعمال التطهير والمحاكمات الاستعراضيّة للخمسينات تأخّر وصولها إلى براغ، لكنّها تركت أثراً أفدح فيها. فهناك لم يجر تدوير الاستعانة بأفراد النخبة الستالينيّة القديمة إذ لم يكن هناك غومولكا أو كادار تشيكوسلوفاكيّان. لقد بقي الحرس القديم للنظام في مكانه، وقد شُكّلت لجنتان للتحقيق في محاكمة سلانسكي والمحاكمات الأخرى: الأولى في ١٩٥٥–٥٧ والثانية في ١٩٦٢–٦٣، واللجنتان هدفتا إلى تقديم تنازلات شكليّة ورسم صورة ورديّة للنظام. وهو غرض أُنجز على المدى القصير: فضحايا المحاكمات الستالينيّة أُطلق سراحهم وأُعيد تأهيلهم، وحصل هذا في مرّات كثيرة بإشراف السياسيّين الذين اتّهموهم والقضاة الذين حاكموهم. وفعلاً استعاد المساجين السابقون بطاقاتهم الحزبيّة وأُعطوا بعض المال وتسهيلات لشراء سيّارة أو شقّة، كما صار في إمكان نسائهم وأبنائهم أن يجدوا فرص عمل وأن يُقبَلوا في المدارس. بيد ان القيادة الموروثة عن الستالينيّة لم تتغيّر.

ومثل قائد الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ موريس توريز، فإن الامين العامّ الأوّل أنتونين نوفوتني انتظر سنوات طويلة وهو يراقب كيف ستهبّ الريح قبل ان يقلّد نموذج خروتشوف ويدين ستالين. فتجربة الارهاب كانت لا تزال طريّة جدّاً في تشيكوسلوفاكيا كما كانت حادّة. هكذا تمّ تأخير نزع الستالينيّة هناك ما أمكن ذلك. حتّى تمثال ستالين المشرف على براغ ومثيله الأصغر في عاصمة سلوفاكيا، براتيسلافا، لم تمتدّ إليهما اليد حتى أواخر ١٩٦٢.

والحال أن آثار الثورة الاجتماعيّة بدت على تشيكوسلوفاكيا مصحوبة بدراميّة تفوق ما عرفته البلدان الأخرى. وهذا مردّه إلى حدّ بعيد إلى أنّها كانت مجتمعاً بورجوازيّاً متطوّراً قياساً بكلّ بلد آخر خضع للحكم السوفياتيّ. وكان الضحايا الكبار للإرهاب

الستالينيّ كلّهم من المثقّفين، ومعظمهم من أصول في الطبقة الوسطى، والكثيرون منهم يهود. فالطبقات الأخرى لم تعان بالدرجة نفسها، بل استفاد معظمها بالمعنى الاقتصاديّ البحت، حيث ارتفعت معدّلات التعليم ارتفاعاً نوعيّاً وكان توزيع المداخيل، في أوائل الستينات، الأشدّ مساواتيّة في سائر بلدان الإمبراطورية السوفياتيّة.

وهذا الواقع معطوفاً على بداية نزع الستالينيّة في ١٩٦٢ أثار مخيّلة الفنّانين والمثقّفين، فانعقد مؤتمر للكتّاب عام ١٩٦٣ في ليبليش كُرّس لدراسة أدب فرانز كافكا ولمناقشته، وهو ما كان موضوعاً محرّماً حتى ذاك الحين: جزئيّاً لأنّ كافكا كان يهوديّاً من براغ يكتب بالألمانيّة، أي أنّه كان تذكيراً بماضي بوهيميا الضائع، ولكنْ أساساً بسبب ما تنطوي عليه كتابات كثيرة لكافكا من توقّع مبكر لمنطق الحكم التوتاليتاريّ. هكذا بدا السماح بمناقشته والتداول في معانيه إشارة إلى لبرَلة أكبر تلفح النقاش العامّ.

هكذا كرّت السبحة، ففي نيسان ١٩٦٣ أتى لاديسلاف نوفوميسكي، وهو كاتب سلوفاكيّ أعيد تأهيله، في مؤتمر الكتاب السلوفاكيّين، على ذكر «رفيقي وصديقي» كليمنتس الذي كان أحد ضحايا محاكمة سلانسكي. وباتت الرغبة في الحديث عن الماضي حادّة وجارفة مع أنها بقيت حذرة في إعلانها التمسّك بحدود المراجعة. فحين قدّم، مثلاً، الروائيّ الشابّ حينذاك، ميلان كونديرا، مقالة لفصليّة براغ الثقافيّة «ليتيرارني نوفيني» في حزيران من العام ذاته، جاءت انتقاداته تقتصر على «الانحراف» الستالينيّ في الأدب التشيكيّ والحاجة إلى قول الحقيقة في شأن ذلك.

لقد كان المزاج الليبراليّ النسبيّ لتلك السنوات استجابة تشيكيّة متأخّرة للحدث الخروتشوفيّ. لكنْ على رغم تغيّر النبرة في موسكو بعد وصول بريجنيف، استمرّت النهضة الفنيّة في تشيكوسلوفاكيا لا يعيقها إلاّ الرقابة والضغط المتفرّقان والموسميّان.

وبالنسبة إلى الأجانب كان أبرز مظاهر النهضة موجة من الأفلام الجديدة التي تخاطب بحذر مواضيع كانت مطروحة قبل سنوات قليلة. وقد ظهرت أيضاً أسماء كتّاب مسرحيّين وشعراء وروائيّين أحدهم كونديرا. وفي ١٩٦٦ و١٩٦٧، جعلت تبرز أعمال أجرأ وأمتن صلة بالفكر السياسيّ، كنقد لاديسلاس مناكو لنومنكلاتورا الحزب على شكل رواية حملت عنوان «مذاق السلطة». كذلك نشر كونديرا، في ١٩٦٧، «المزحة»، وهي عمل ما بعد وجوديّ يُفترض أنّه رواية سيرة ذاتيّة عن الجيل الستالينيّ في بلاده.

هكـذا صـارت تلك السـنوات، التـي كانت تُسـمّى رسـميّاً «مرحلـة بناء الاشـتراكيّة»، موضوعـاً مشـاعاً للإدانة الثقافيّـة، وفي المؤتمر الرابـع لكتّـاب تشيكوسـلوفاكيا صيف ذاك العام هاجم كونديرا والروائيّ لودفيك فاكوليك والشـاعر والمسـرحيّ بافل كوهوت والمسرحيّ الشـابّ فاكلاف هافـل، الذي سـيبرز لاحقاً قائـداً للحركـة الديموقراطيّـة والاسـتقلاليّة، القيـادة الشـيوعيّة للبلـد، داعـين إلـى عودة التقليـد القديم فـي الحريّات الثقافيّـة والأدبيّة وإلـى احتـلال بلادهـم موقعهـا «الطبيعـيّ» في قلـب أوروبا الحرّة. وبـدا الهجوم الضمنيّ على السياسـة التشيكيّة صريحاً واضح المعاني فيمـا كانت قيادة بريجنيف تراقب الوضع عن كثب. فهو ارتاب طويلاً بأن تشيكوسلوفاكيا أقلّ بلـدان الكتلة مدعاة للثقة الايديولوجيّة، وبسـبب هـذه القناعـة حرصـت القيـادة التقليديّـة التشيكوسـلوفاكيّة، كـي تطمئن الكرملين، علـى التقيّد بأدقّ الأرثوذكسـيّة. بيـد أنّ عاملين حالا دون ضرب التمرّد الثقافيّ أواخر السـتينات: الحاجة إلى إتباع إصلاحات اقتصاديّة كانت اتُّبعت مؤخّراً، وهو ما يفترض درجة من الانفتاح والتسـامح مع الرأي المنشقّ علـى الطريقة الهنغاريّـة، وكذلك الصعوبات التي كانت تجدّ في سلوفاكيا نفسها.

العامل الاقتصاديّ الضاغط

فتشيكوسـلوفاكيا كانـت دائمـاً دولة صعبة وغير متوازنة: الأقليّة السـلوفاكيّة في الشـرق والجنـوب أفقر وأكثـر ريفيّة من التشـيك في الشـمال الغربـي. وبعـد تحرّرهم مـن الحكم الهنغاريّ في ١٩١٨، كان السـلوفاك الجماعة الأقلّ تمتّعاً بعلاقات مجتمعيّة حديثة ومزدهرة، كما ان براغ لم تعاملهم دائماً على نحو لائق. هكـذا رحّب كثيرون مـن القادة السياسـيّين السلوفاكيّين بانفصام البلد في ١٩٣٩ وبظهور دولـة «مسـتقلّة» شـكليّاً في كنـف النازيّين الألمان عاصمتها بريتسـلافا. وفـي المقابل فإنّ التشيكيّين المدينيّين وذوي التقليد الاشتراكيّ الديموقراطـيّ فـي بوهيميا وموراڤيـا كانوا مَن دعم المرشّحين الشيوعيّين في انتخابات ما بعد الحـرب، بينما وقف السـلوفاك الكاثوليك إما في الموقع الضدّ أو في موقع غير العابىء.

فـي الوقـت نفسـه لم تذعـن سـلوفاكيا للشـيوعيّة. فالمثقّفـون وقعـوا ضحيّـة أعمال التطهير واتُّهموا بالقوميّة البورجوازيّة وبالتآمر المناهض للشـيوعيّة. كما عانـى العدد القليل المتبقّـي مـن يهود سـلوفاكيا ما عانـاه اليهود التشـيك. إلاّ أن «القوميّـين البورجوازيّـين» والشيوعيّين واليهود والمثقّفين كانوا أصغر عدداً في سـلوفاكيا وأكثر عزلة عـن باقي المجتمع. فمعظـم السـلوفاك كانـوا فقراء يعيشـون في

الأرياف، ولهؤلاء حمل التمديُن والتصنيع السريعان للعقد الأوّل بعد الحرب منافع حقيقيّة. هكذا بدوا أقلّ تذمّراً من التشيك.

على أنّ المزاج في سلوفاكيا تغيّر بحدّة بعد ١٩٦٠: فالدستور «الاشتراكيّ» الجديد فرض مزيداً من التقييدات على المبادرة المحليّة وعلى الرأي، كما تراجع الإقرار بخصوصيّة تشيكيّة ممّا كانت استدعته مهمّة إعادة بناء البلد في العقد الأوّل لما بعد الحرب. كذلك دخل الاقتصاد في ركود، وفي ١٩٦٤ باتت نسبة النموّ في تشيكوسلوفاكيا الأبطأ في بلدان الكتلة، إلاّ أن الركود ضرب الصناعة الثقيلة في سلوفاكيا الوسطى أكثر من أيّ مكان آخر.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ كان يفترض بنوفوتني أن يباشر وضع الإصلاحات الاقتصاديّة التي اقترحها خبراء حزبه موضع التنفيذ، والاقتراحات تلك هدفها تفكيك المركزيّة في صناعة القرار وزيادة صلاحيّات الإدارات المحليّة، مما وجد الترحيب في براتيسلافا. وهذا مع أن بعض الاقتراحات، مثل ربط الحوافز بالأجور، لم يكن لها كبير معنى في أوساط العمّال غير المهرة في المصانع السلوفاكيّة الضئيلة الفاعليّة. لكنّ نوفوتني كان غريزيّاً يقاوم إرخاء السيطرة الحزبيّة. وهو، في المقابل، شجّع على إدخال تعديلات على الإصلاحات المقترحة كي يعزّز مؤسّسات التخطيط المركزيّ. وهذا لم يؤدّ فقط إلى تخريب الاقتراحات الإصلاحية لاقتصاديّي الحزب، بل أفضى كذلك إلى تنفير الرأي العامّ السلوفاكيّ. فالشيوعيّون السلوفاك أنفسهم شرعوا يتحدّثون عن الحاجة إلى الفيدراليّة وعن مصاعب التعاون مع بيروقراطيّة حزبيّة هرمة في براغ. وهنا حضرت تذمّرات القطاعات الاجتماعيّة جميعاً وأحاسيس الأقليّة حيال الأكثريّة وعدم احترامها لها، فضلاً عن التطهيرات الستالينيّة للشيوعيّين السلوفاك.

في غضون ذلك، وللمرّة الأولى منذ سنوات، لاحت إشارات إلى مشاكل على جبهات أخرى: ففي أواخر تشرين الأوّل ١٩٦٧ نظّمت مجموعة طلاّب من جامعة براغ التقنيّة تظاهرة للاعتراض على قطع الكهرباء في منامات الطلبة في الجامعة، لكن المطالبات بـ«ضوء أكثر» سريعاً ما فُسّرت، وبحقّ، دعوة لرفع العتم السياسيّ. هكذا قمع البوليس بقسوة وبعنف تلك المظاهرة، غير أنّ ذلك عبّأ الوضع فبدا أن الطلبة في المعسكر الاشتراكيّ قد لا يكونون بعيدين عن الحالة الطلابيّة في الغرب. ونوفوتني، مثل غومولكا، لم يكن متأكّداً من كيفيّة الاستجابة المجدية للتحدّي، ولأنّه كان يفتقر إلى المهرب اللاساميّ الذي لجأ إليه البولنديّون، طلب من بريجنيف

المساعدة في التعامل مع النقّاد المحليّين. لكنْ حين وصل القائد السوفياتيّ إلى براغ في كانون الأوّل (ديسمبر)، لم يجد ما يقترحه إلاّ ذاك الخيار الغامض، وهو ترك حريّة التصرّف لنوفوتني والحزب التشيكوسلوفاكيّ. هكذا انتهز بعض الشيوعيّين المناسبة وانتخبوا في ٥ كانون الثاني ١٩٦٨ أميناً عامّاً أوّل للحزب هو ألكسندر دوبتشيك.

والأخير كان في السابعة والأربعين، أي أنّه أصغر ١٦ سنة من نوفوتني. وهو من الجناح الإصلاحيّ للحزب، والأهمّ أنّه سلوفاكيّ. وكقائد للحزب الشيوعيّ السلوفاكيّ للسنوات الثلاث الماضية، ظهر دوبتشيك للبعض بوصفه المرشّح التسوويّ المتمتّع بالصدقيّة: فهو من البيروقراطيّة الشيوعيّة العتيقة، ولا بدّ أن يؤيّد الإصلاحات كما يمإلىء التذمّرات السلوفاكيّة. وجاءت تحرّكاته الأولى مصداقاً لهذه الرواية: فبعد شهر على تعيينه، وافقت القيادة على برنامج الإصلاحات الاقتصاديّة الذي كان مجمّدا. وكان سلوك دوبتشيك الصريح يخاطب الشبيبة ويجذبها فيما كان ولاؤه المؤكّد للحزب و«الاشتراكيّة» يضمن رضا موسكو والقادة الشيوعيّين في المحيط ممّن ينظرون بقلق إلى تشيكوسلوفاكيا. وإذا تراءت أفكار دوبتشيك غامضة للمراقبين، فلأنّه هو نفسه لم يكن، على الأرجح، متأكّدا من المكان الذي يتّجه إليه.

وقد خدمه، في البداية، هذا الغموض إذ تنافست الكتل المختلفة على دعمه وعرضت استعدادها لتقوية قبضته. وبدورها طالبت تظاهرات شهدتها براغ في الأسابيع التي تلت انتخابه بإنهاء الرقابة وبحرية أكبر للإعلام وتحقيق جدّيّ في أعمال التطهير في الخمسينات وفي مسؤوليّات الحرس القديم الملتفّ حول نوفوتني الذي بقي رئيساً للبلد رغم إزاحته عن قيادة الحزب. ومحمولاً على موجة من الحماسة الشعبيّة، استجاب دوبتشيك بتخفيف الرقابة كما باشر بتطهير النوفوتنيّين من القيادة ومن الجيش التشيكيّ. وفي ٢٢ آذار استقال نوفوتني نفسه من الرئاسة ليحلّ محلّه الجنرال لودفيغ سفوبودا. وبعد خمسة أيّام تبنّت اللجنة المركزيّة للحزب «برنامج عمل» يدعو إلى حكم ذاتيّ لسلوفاكيا ووضعيّة مساوية بتشيكيا وإعادة تأهيل ضحايا الماضي و«دمقرطة» النظام السياسيّ والاقتصاديّ. وبات الحزب رسميّاً يؤيّد ما سمّاه البرنامج «تجربة فريدة في الشيوعيّة الديموقراطيّة» أو «الاشتراكيّة ذات الوجه الانسانيّ»، وهي التسمية التي ذاعت لاحقاً.

وقد تحدّثت الوثيقة عن فترة انتقال من عشر سنوات يسمح الحزب الشيوعيّ

التشيكوسلوفاكيّ بعدها بقيام أحزاب تنافسه في انتخابات عامّة. وإذا صحّ ان هذه ليست أفكاراً غير مطروقة، فإن صدورها عن منصّة الحزب كان بمثابة هزّة أرضيّة. لقد ابتدأ معها، بمعنى ما، «ربيع براغ».

فأحداث ربيع ١٩٦٨ وصيفه ارتكزت على بضعة أوهام معاصرة: فقد شاع في البلد، بعد صعود دوبتشيك، وخصوصاً بعد نشر «برنامج العمل»، أن الحريّات والإصلاحات يمكن دمجها في المشروع «الاشتراكيّ»، والمقصود الشيوعيّ. والحال أن من الخطأ الافتراض إن الطلّاب والكتّاب وإصلاحيّي الحزب في ١٩٦٨ كانوا يبحثون عن إحلال الليبراليّة الرأسماليّة محلّ الشيوعيّة، أو أن حماستهم «للاشتراكيّة بوجه إنسانيّ» كانت مجرّد صياغة لفظيّة. على العكس، فإن الاعتقاد بوجود طريق ثالث، ديموقراطيّ واشتراكيّ وفيه مؤسّسات حرّة كما تُحترم فيه الحريّات الفرديّة والأهداف الجماعيّة، استولى على مخيّلة الطلبة التشيكيّين، لا أقلّ من استيلائه على عقول الاقتصاديّين الهنغاريّين ممّن آمنوا بالمعادلات ذاتها في حقل اشتغالهم. وقد اعتُمد على نطاق واسع التمييز المستجدّ بين الستالينيّة الذاوية لجيل نوفوتني ومثاليّة حقبة دوبتشيك، لا سيّما من قبل أعضاء الحزب. وعلى ما أكّد جيري بيليكان في مقدّمته للتقرير الثالث عن المحاكمات السياسيّة التشيكوسلوفاكية (وهو ما كان دوبتشيك قد كلّفه، في ١٩٦٨، بإصداره، قبل أن يتعطّل المشروع بُعيد إطاحته)، كسب الحزب الشيوعيّ شعبيّة ضخمة، وراح المواطنون يعلنون طوعاً أنّهم يؤيّدون الاشتراكيّة.

وهذا الكلام لئن حمل بعض المبالغة إلا أنه لم يكن خاطئاً، مع أنه أنعش وهماً آخر: فلئن آمن الشعب بأن الحزب يستطيع إنقاذ الاشتراكيّة من تاريخها، فإنّ القيادة الحزبيّة آمنت، في المقابل، بأنّها تستطيع ذلك من دون أن تفقد سيطرتها على البلد. وفي ١٨ نيسان تشكّلت حكومة جديدة برئاسة أولدريتش تسيرنيك ووجدت الدعم والتشجيع في عديد التظاهرات المؤيّدة، لا سيّما يوم الاحتفالات بعيد العمّال في أوّل أيّار. ونزعت هذه الحكومة الكثير من أشكال الرقابة على الرأي العامّ والتعبير، وفي ٢٦ حزيران ألغت الرقابة على الصحافة والإعلام، وأُعلن، في اليوم نفسه، أن تشيكوسلوفاكيا ستغدو دولة فيدراليّة حقيقيّة تتشكّل من جمهوريّتي تشيكيا وسلوفاكيا الاشتراكيّتين.

والراهن أنّ هذا كان الإصلاح الدوبتشكيّ هو الوحيد الذي عاش إلى ما بعد إطاحة صاحبه. لكن بما إن القيادة الشيوعيّة قد فعلت ذلك، صارت مواجَهة، ومن كلّ جانب،

بضغوط تطالبها بالمزيد وبالاستكمال: فلماذا الانتظار عشر سنوات أخرى لإجراء انتخابات حرّة؟ وما دامت الرقابة قد زالت، فلماذا الاحتفاظ بملكيّة عامّة للإعلام؟

وفي ٢٧ حزيران حملت «ليتيرارني ليستي» ومطبوعات أخرى مانيفستو كتبه لودفيك فاكوليك تحت عنوان «ألفا كلمة»، موجّهاً إلى «العمّال والمزارعين والرسميّين والفنّانين والأساتذة والعلماء والتقنيّين»، وقد دعا إلى إعادة تشكيل الأحزاب السياسيّة وتأسيس لجان للمواطنين تدافع عن مبدأ الإصلاح، واقتراحات أخرى في إطار تعزيز التحرّر من سيطرة الحزب. فالمعركة لم تكن قد كُسبت بعد، وقد حذّر فاكوليك من أن الرجعيّين في الحزب سوف يقاتلون للحفاظ على امتيازاتهم، لا بل إن هناك كلاماً عن «قوى أجنبيّة تتدخّل في تطوّراتنا»، والشعب بحاجة إلى تقوية ذراع الشيوعيّين الإصلاحيين ودفعهم إلى مزيد من الحسم والراديكاليّة.

دوبتشيك، من ناحيته، رفض المانيفستو وتضمينه فكرة تخلّي الشيوعيّين عن حكم الحزب الواحد: فهو، كشيوعيّ طوال سنوات عمره، لن يرتكب القبول بـ«التعدديّة البورجوازيّة» ولم ير أن ثمّة حاجة لذلك. فالحزب عنده هو وحده الأداة الصالحة للتغيير الراديكاليّ والاحتفاظ بمكاسب النظام الاشتراكيّ، وكلّما تعاظمت شعبيّة الحزب تزايدت قدرته على ذلك. وكان المانيفستو قد لحظ، في المقابل، أن شعبيّة الحزب وصدقيّته تقومان، وفي صورة متنامية، على رغبته في التغيير الذي يقود، في النهاية، إلى إزاحته عن السلطة. وهكذا اتّضح على نحو بالغ التبلور ذاك الفارق بين دولة شيوعيّة ومجتمع مفتوح.

وهم دوبتشيك

وهذا ما حوّل الاهتمام الشعبيّ، صيف ١٩٦٨، نحو وهم آخر هو الأخطر: فقناعة دوبتشيك كانت انه يستطيع ردع موسكو عن التدخّل ويسعه طمأنة رفاقه السوفيات من أن ما من سبب لمخاوفهم، لا بل أنهم يستفيدون كثيراً من تحوّل الحزب الشيوعيّ التشيكوسلوفاكيّ إلى حزب واسع الشعبيّة ومن تجديد الإيمان بالاشتراكيّة.

والسبب الأوّل في ارتكاب دوبتشيك هذا الخطأ الجسيم أن الإصلاحيين التشيك لم يستوعبوا درس ١٩٥٦ الهنغاريّ. فهم اعتقدوا أنّ خطأ إيمري ناجي انفصاله عن حلف وارسو وإعلانه حياد بلاده، وبالتالي فإذا بقيت تشيكوسلوفاكيا بصلابة عضواً في الحلف واستمرّت شديدة التحالف مع موسكو، فإن بريجنيف وزملاءه سيدَعونهم لشأنهم. لكنْ في ١٩٦٨ كان الاتّحاد السوفياتيّ قلقاً على

أمنه العسكريّ أقلّ مما على خسارة الحزب لاحتكار السلطة. ففي ٢١ آذار، وفي اجتماع للمكتب السياسيّ السوفياتيّ تذمر القائد الأوكرانيّ بيترو شيليست من العدوى التي يتسبّب بها المثال التشيكوسلوفاكيّ، وقال إن الاشاعات التي تصل من براغ تنعكس مباشرة على شبيبة بلده. كذلك أدلى القائدان البولنديّ والألمانيّ الشرقيّ بملاحظات مشابهة أمام رفاقهم السوفيات في اجتماع عقد في درسدن بألمانيا في الشهر نفسه، وبدا غومولكا، وهو يعاني متاعبه في بلده، شديد الاستياء من الانتقادات العلنيّة التي تردّدت في براغ عن تحوّل بولندا إلى اللاساميّة.

ومن غير أن تعرف براغ بذلك، تحدّث رئيس الكي جي بي يوري أندروبوف عن حاجة محتملة لـ«إجراءات عسكريّة ملموسة»، وفي نيسان كُلّف وزير الدفاع السوفياتيّ أندريه غريشكو بأن يضع بهدوء خطّة احتياطيّة لعمليّة عسكريّة في تشيكوسلوفاكيا، وكانت هذه النسخة الأولى لما بات يُعرف بـ«عملية الدانوب».

ومع كلّ خطوة في اللبرلة خطتها براغ، كان يزداد برم موسكو واستياؤها. أمّا دوبتشيك فلا بدّ أنّه استشعر ذلك: لهذا قام، في ٤ و٥ أيّار، برفقة قياديّين آخرين في الحزب بزيارة موسكو حيث كان في استقباله قادة الكتلة الشرقيّة ومعهم لائحة من التذمّرات في خصوص أحداث بلدانهم الناجمة عن حدث بلده. لكنْ فيما مضى دوبتشيك يصرّ على ان الحزب يسيطر على كلّ شيء وأن بلاده لن تتخلّى مطلقاً عن التزاماتها الأخويّة والرفاقيّة حيال المعسكر، فإن الثقة بالجيش التشيكوسلوفاكيّ بدأت توضع موضع الشكّ فيما كان الإعلام التشيكوسلوفاكيّ، الذي تحرّر من الرقابة، ينشر موادّ عن المنشقّين السوفيات. وبدورهم، فإن الطلبة الروس الذين كانوا يزورون براغ بات في وسعهم ان يسمعوا ما هو غير معهود عن أفكار وأناس غير مرغوب بها وبهم في بلدهم. لقد جعلت براغ تتحوّل إلى نافذة على الغرب.

وفي تمّوز (يوليو) ١٩٦٨ توصّل الاتّحاد السوفياتيّ إلى قناعة بأن الأحداث في تشيكوسلوفاكيا تخرج عن سيطرة الحزب، وهذا الانطباع ربّما كان صحيحاً. هكذا وفي اجتماع في موسكو في أواسط ذاك الشهر ضمّ قادة الأحزاب الشيوعيّة في الاتّحاد السوفياتيّ وبولندا وألمانيا الشرقيّة وبلغاريا وهنغاريا، من دون حضور القادة التشيك، تمّت الموافقة على إرسال رسالة أخويّة للحزب التشيكوسلوفاكيّ تحذّره من مخاطر الثورة المضادّة كما تعدّد الإجراءات التي ينبغي اتّخاذها، ذاك «أن الوضع في تشيكوسلوفاكيا يشلّ المصالح الحيويّة المشتركة للبلدان الاشتراكيّة الأخرى». وبعد

أسبوعين التقى القادة السوفيات والتشيك على الحدود المشتركة وحاول دوبتشيك مجدّداً إقناع بريجنيف بأن الحزب الشيوعيّ لا يُضعف، باعتماده الإصلاحات، أيّ موقع لكنّه يقوّي موقعه وشعبيّته بين السكّان. أمّا بريجنيف فلم يخرج غير مقتنع فحسب، بل غدا أشدّ تشكيكاً بمقاصد دوبتشيك. وبالفعل أعلن حلف وارسو عن مناورات وشيكة قرب الحدود التشيكيّة. وفي اجتماع للحلف في براتيسلافا في ٣ آب (أغسطس)، امتنع تشاوتشيسكو الرومانيّ عن حضوره، أعلن بريجنيف المبدأ الذي صار يُعرف لاحقاً باسمه: «كلّ حزب شيوعيّ حرّ في أن يطبّق مبادىء الماركسيّة–اللينينيّة والاشتراكيّة في بلده، لكنّه ليس حرّاً في أن ينحرف عن تلك المبادىء إذا ما شاء أن يبقى حزباً شيوعيّاً... إن إضعاف أيّ من حلقات النظام العالميّ للاشتراكيّة يؤثّر مباشرة على البلدان الاشتراكيّة كلّها، وهي لا تستطيع أن تكون غير مكترثة حيال هذا».

والإعلان هذا، كما يرى تونى جوت، ربّما أخاف دوبتشيك لكنْ لم يكن هناك الكثير الذي يستطيع فعله. هكذا استمرّ في إصراره على ان الاصلاحات الداخليّة لا تشكّل أيّ خطر على النظام الاشتراكيّ. وفي ١٣ آب، وفي محادثة هاتفيّة مع بريجنيف، حاول دوبتشيك بكلّ جهد إقناعه بأنّه يحاول وقف الانتقادات الشعبيّة للاتّحاد السوفياتيّ في بلده، غير أن أمراً كهذا «لا يمكن حلّه بمجرّد إصدار أمر إداريّ من أعلى». في غضون ذلك، وفي ٣ آب تحديداً، كان خمسة من أعضاء مجلس الرئاسة التشيكوسلوفاكيّ، وهم من المحافظين، قد سلّموا الروس رسالة سرّيّة يصفون فيها ما يجري في بلادهم بأنّه خطر على الشيوعيّة ويطالبونهم بالتدخّل العسكريّ. وقد تبيّن لاحقاً أنّ هذه الرسالة جاءت استجابة لطلب جانوس كادار، أمين عام الحزب الهنغاريّ الذي اهتمّ بالبحث عن مجموعة في الداخل تدعو حلف وارسو إلى التدخّل.

في الحالات جميعاً تبقى قصّة الغزو قصّة خيبة الأمل التي أصابت التشيكوسلوفاكيّين عموماً، لكنّها أصابت المثقّفين منهم في صورة خاصّة. والحال أن القرار الرسميّ بالغزو لم يُتّخذ حتّى ١٨ آب.

قمع الربيع

ويبدو أن بريجنيف كان متردّداً، لا خوفاً من العمليّة العسكريّة بالطبع، بل من تداعياتها السياسيّة. وقد سبق للقادة السوفيات أن توقّعوا النجاح للمحافظين في المؤتمر الرابع عشر للحزب التشيكوسلوفاكيّ، الذي كان مقرّراً انعقاده قريباً، في تسلّم القيادة وفي

وقف الآثار المُعدية للنموذج الجديد. هكذا بدا غريشكو واضحاً وهو يطلع اجتماعاً للقادة العسكريّين السوفيات على قرار الغزو: «إن الغزو سيحصل حتى لو أفضى إلى حرب عالميّة ثالثة».

لكنّ سادة الكرملين كانوا يعرفون أنّ هذا الخطر غير وارد، وهذا ليس فقط لأن واشنطن متورّطة في فيتنام، بل أيضاً لأنّ موسكو وواشنطن كانتا قبل خمسة أسابيع فقط قد وقّعتا معاهدة عدم انتشار الأسلحة النوويّة. والولايات المتّحدة ما كانت لتلحق الشلل بإنجاز كهذا من أجل تشيكوسلوفاكيا، على أهميّة تشيكوسلوفاكيا.

هكذا تقدّم، في ٢١ آب ١٩٦٨، نصف مليون جنديّ لحلف وارسو، من بولندا وهنغاريا وبلغاريا وألمانيا الشرقيّة والاتّحاد السوفياتيّ، نحو تشيكوسلوفاكيا. ولاقى الغزو بعض المقاومة السلبيّة والكثير من الاحتجاجات في الشوارع، خصوصاً في براغ، لكنْ لم يحدث، بطلب من الحكومة التشيكيّة، أكثر من هذا. وبدوره، سبّب الاستقبال غير الوديّ بعض المفاجأة لدى القيادة السوفياتيّة التي كانت قد انقادت للظنّ بأن دبّاباتها سوف تحاط بالمؤيّدين.

في البداية اعتُقل دوبتشيك وبعض زملائه القادة ونُقلوا إلى موسكو حيث أُجبروا على توقيع ورقة تدين أجزاء من برنامجهم وتؤيّد الاحتلال السوفياتيّ لبلدهم. لكنّ تأكّد الكرملين من أن الإصلاحيّين يحظون بتأييد شعبهم حمله على إبقائهم في مناصبهم الشكليّة. وعلى أيّة حال فقمع إصلاحات براغ، أو «التطبيع» على ما بات يُعرف، بدأ مباشرة. فقد أُلغي مؤتمر الحزب المقرّر وأعيد العمل بالرقابة وتوقّف كلّ كلام عن الإصلاح. وبين القادة السوفيات كان هناك تأييد ملحوظ لفرض ديكتاتوريّة عسكريّة على براغ. فهذا لم يكن خيار أندروبوف والأوكرانيّ شيليست فحسب، ولكنْ أيضاً خيار الألمانيّ ولتر أولبرخت والبلغاريّ تودور جيفكوف والبولنديّ غومولكا.

بيد أن بريجنيف استقرّ رأيه على إبقاء دوبتشيك في منصبه أشهراً أخرى من أجل إنجاز فدرلة البلد لغرض غير الغرض الأصليّ الذي رمى الإصلاحيّون إليه. فإذا كان هذا مطلباً رئيسيّاً ثابتاً للسلوفاك، إلاّ أن الهدف الآن لا يعدو فصلهم عن التشيك لأنّهم الأكثر راديكاليّة. واختار بريجنيف أن يراقب الوضع بهدوء فيما يُبقي قوّات عسكريّة للحلف هناك.

أحياناً كانت تحصل تظاهرات طلابيّة دفاعاً عن الإصلاحات، وفي المدن الصناعيّة لبوهيميا ومورافيا ظهرت، لفترة قصيرة،

شبكة مجالس عماليّة على غرار هنغاريا في ١٩٥٦. لكنْ في ذروتها، مطالع ١٩٦٩، استطاعت هذه المجالس أن تمثّل واحداً من كلّ ستة في قوّة العمل الوطنيّة، علماً بأنّها ظلّت شديدة الضعف في سلوفاكيا. كذلك انتحر جان بالاخ، الطالب ابن العشرين في جامعة تشارلز، الذي أضرم النار في جسده على مدرّج المتحف الوطنيّ في ساحة وينسيسلاس المركزيّة في براغ، اعتراضاً منه على الغزو السوفياتيّ وما تلاه. لقد عاش بالاخ ثلاثة أيّام قبل موته وهو يعاني من حروقه وجروحه، وكانت جنازته، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٦٩، مناسبة للحداد الوطنيّ عليه وعلى استقلال تشيكوسلوفاكيا وديموقراطيّتها.

وربّما جاز القول إن هذه العواطف الشعبيّة الواسعة كانت عواطف ثقافيّة بمعنى ما، كما أن المثقّفين كانوا أوّل وأبرز من يتلقّاها ويتفاعل معها.

المرّة الثانية التي خرجت فيها إلى الشوارع مظاهرات مؤيّدة للديموقراطية، كانت بعد مباراة رياضيّة (في «الآيس هوكي») انتصرت فيها تشيكوسلوفاكيا على الاتّحاد السوفياتيّ، فاستثمر الكرملين الفرصة لإزاحة دوبتشيك رسميّاً وإحلال غوستاف هوسّاك محلّه، وكان هذا في ١٧ نيسان. وكسلوفاكيّ وأحد مساجين ستالين بتهمة «القوميّة»، بدا هوسّاك الشخص الأمثل للقيام بتطهير البلاد من الهرطقة الإصلاحيّة، دون أن يتسبّب ذلك باتّهامه ببعث الستالينيّة. أمّا القمع الذي حلّ فكان أقلّ جلافة من السابق لكنّه أكثر فعاليّة. فعلى مدى سنتين طُهّر الحزب من كلّ العناصر «غير الموثوقة»، فطُرد عشرة قياديّين، تسعة منهم تشيك.

والرجال والنساء الذين كانوا ناشطين في «ربيع براغ» استُجوبوا وطُلب منهم أن يوقّعوا بيانات تدين أعمالهم وترفض إصلاحات دوبتشيك. وكان البائس أن الغالبيّة وقّعت فيما الذين رفضوا خسروا أعمالهم وصاروا، هم وأقاربهم وأبناؤهم، معزولين ومارقين اجتماعيّين. وبلا قياس تشكّلت كبرى مجموعات الضحايا من أولئك الذين لعبوا، من داخل الحزب أو من خارجه، دوراً ملحوظاً في السنوات الأخيرة: صحافيّين، مذيعي تلفزيون، كتّاب مقالات، روائيّين، سينمائيّين، مسرحيّين، أو قادة طلابيّين. وهؤلاء جميعاً، بنسبة أو أخرى، وبحسب تعريف أو آخر، مثقّفون. وقد أهين كثيرون منهم على أيدي رجال الشرطة وصغار البيروقراطيّين، ثمّ بدا العلاج لـ«الهستيريا» التي أثاروها خليطاً من جزرة السلع الاستهلاكيّة وعصا الرقابة الموسّعة والمعمّمة.

التهديد بالعنف كان غالباً ضمنيّاً، لكنّ

عدم اضطرار السلطة إلى ممارسته بشكل صريح ومعلن زاد الشعور بالمهانة الجمعيّة. فمرّة أخرى، وكما في ١٩٣٨ ثم ١٩٤٨، جُعلت تشيكوسلوفاكيا متواطئة مع هزيمتها. ولم «يُستَعَد النظام»، حسب اللغة الرسميّة، إلاّ في ١٩٧٢ حين حُمل الشعراء وكتّاب المسرح على تنظيف النوافذ والقرميد، بعدما طُرد الطلاّب الأكثر اعتراضاً والأعلى صوتاً، فيما كانت ملفّات البوليس محشوّة بـ«اعترافات» مفيدة، وكان الشيوعيّون الإصلاحيّون قد بُدّدوا ما بين راضخ مستسلم أو منفيّ.

وفي بلدان الكتلة ظهرت علامات احتجاج. ففي ٢٨ آب ١٩٦٨ حصلت تظاهرات في الساحة الحمراء بموسكو تحتجّ على احتلال تشيكوسلوفاكيا، وقد ضمّت بافيل ليتفينوف، حفيد وزير خارجية ستالين، ولاريسّا دانيال زوجة الروائيّ السوفياتي المسجون. وقد حُملت الوحدات العسكريّة الأوروبيّة الشرقيّة التي شاركت في الغزو على الاعتقاد بأنّها تدافع عن البلد ضد غزاة ألمان غربيّين وأميركيّين. لكنْ في وقت لاحق، سُحب بهدوء بعض هذه الوحدات، إذ تراجعت الثقة بهم، لا سيّما القوّات الهنغاريّة التي احتلّت سلوفاكيا وتمركزت فيها. وفي بولندا حفز القمع في براغ على احتجاجات طلابيّة كما أطلق يد السلطات في إخضاعها.

وفي نيسان ١٩٦٩، وفي ريغا عاصمة لاتفيا، أشعلت طالبة يهوديّة، هي إليا ريبست، نفسها لكي تلفت الانتباه إلى المعاملة السوفياتيّة لدوبتشيك.

أمّا مواقف التشيك والسلوفاك، وهم حتى ذاك الوقت بين أكثر أمم الكتلة تأييداً للروس، فتغيّرت كثيراً وإن تم احتواء هذا كلّه بسهولة. فالكرملين أثبت ما أراد إثباته من أن الدول الاشتراكيّة الشقيقة لن تكون لها إلاّ سيادة محدودة، وأن أيّ تذبذب في احتكار الحزب للسلطة قد يستحضر تدخّلاً عسكريّاً. أمّا اللاشعبية في الداخل أو الخارج فليست سوى ثمن تافه يُدفع مقابل الاستقرار. على أنّه لم يعد يمكن الزعم أن الشيوعيّة تنهض على موافقة شعبيّة أو على شرعيّة حزب مُصلَح أو حتى على دروس التاريخ.

بلغة أخرى، ما عادت الشيوعيّة تتطلّب غطاء ثقافيّاً، ولا عاد في وسع المثقّفين، أو في رغبتهم، أن يغطّوا الشيوعيّة.

فالخديعة القائلة إنّها قابلة للإصلاح بينما الستالينيّة عارض سيّء، وإن مثالات التعدّديّة الديمقراطية تقبل التعايش مع بنى الجماعيّة – هذه الخديعة سحقتها الدبّابات في ٢١ آب ١٩٦٨، ولم تتماثل إلى الشفاء بعد ذاك. فألكسندر دوبتشيك وبرنامج عمله ما كانا بداية بل كانا النهاية: ذاك أن

الراديكاليّين والإصلاحيّين كفّوا عن النظر إلى الحزب الحاكم بوصفه ما يحقّق طموحاتهم أو ينقل مشاريعهم إلى الواقع. لقد ماتت روح الشيوعيّة ولم تبق على قيد الحياة إلاّ بفضل القوّة الممزوجة بالقروض الأجنبيّة، وقد استمرّ هذا الموت المؤجّل حتى ١٩٨٩.

أمّا الثقافة في أوروبا الغربيّة، ومن خلال رموز بارزة في اليسار، فاستكملت طلاقها، تحت وطأة الحدث التشيكوسلوفاكيّ، مع الشيوعيّة في سائر تلاوينها، وشرعت تتهيّأ لتصنيفها لوناً آخر من ألوان التوتاليتاريّة فحسب.

حازم صاغية